على هامش النثر الفني

الاعجاب بالنفس أخطر ما يصيب الباحث المفكر لأنه يخيل اليه التفوق والنبوغ ، ويزين له الغرور بما يكون منه من عمل ، والفتون بما يرى من رأى أو يلفظ من قول . وكلما تتابعت الأيام تمكن منه ، وغلبه على عقله ، وران على فكره ، وغطى على بصره ؛ فلا يبصر الا محاسنه ، ولا يفكر إلا في عظمته ، ولا يعقل إلا ما يتصل بهذه المحاسن وتلك العظمة من قريب أو بعيد . ومن هنا كانت خطورته على المفكر لأنه ليس كغيره من الناس يفكر لنفسه ويحبس عليها تفكيرها أو يذيعه في تلك البيئة اليسيرة القصيرة التي تحيط به من المعارف والأصدقاء ؛ وانما هو مولع بالتفكير للناس لا يكاد ينتهي الى رأي في العلم ، أو نظرية في الفن ، أو نظرة عابرة فيما دون ذلك إلا وهو آخذ بأسباب اذاعتها ، عامل على نشرها بين الناس جميعاً ، لا يهدأ له بال ، ولا يطمئن له خاطر حتى يعرض فكره وعقله وقلبه ويظهر الناس على ما كان يعتلج فيها من أسرار ، ويختلج من آراء ، ويضطرب من مشاعر . فاذا لم يأخذ الباحث حذره من شيطان الاعجاب ويتهم نفسه في رغائبها ، ويجادلها عن منازعها ؛ ويفاتش ضميره جاهداً ، ويراجع عقله ، ويقايس بين أفكاره حتى يميز الخبيث من الطيب أهلكه الاعجاب ، وأخمل ذكره ، وعرّضه لألوان من النقد اللاذع ، وفنون من التهكم المرير لا قبل له بتحملها ، ولا صبر له على بأسها ، وان بأسها لشديد ، والحق الذي لا مرية فيه ان الوان الخطأ التي يدفع اليها الاعجاب على عظمها وغرابتها ما كانت لتقع لو لا تلك الحجب الكثيفة التي يضربها على العقل ، ويحول بها بين المرء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقلبه . لا تكاد الفكرة تطرق ذهن المعجب بنفسه حتى تستحيل الى رأي ، ولا يلبث الرأي حتى يستحيل الى عقيدة تملأ مسارب النفس ، وتأخذ بمسالك الوجدان فيعتنقها ويجادل عنها ما وسعته المجادلة وأمده البيان ، وان كان خطؤها بادياً للعيان لأنها وليدة الاعجاب الفتان .

ومن هذا القبيل تلك الفكرة التي اعتقدها الدكتور زكي مبارك في أبي حيان التوحيدي ، وكانت مبعث خطئه في احكامه عليه . اعتقد انه رجل أنشأه الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب والجاه ، وأديب متشرد أفاق يرجع نبوغه الى حسده وحقده وثورته على الحياة والأحياء . وهو فوق هذا وذاك مفتر كذاب . أنطق معاصريه بما شاء من الأقوال والآراء ، وسجلها في كتبه معزوة لهم زوراً وبهتاناً . وانه لصاحبها ومخلقها فعليه وحده تقع تبعتها ، واليه يرجع نقد الناقدين ، وطعن الطاعنين وفي ضوء تلك الفكرة أو في ظلامها كتب الدكتور ما كتب عن أبي حيان ، وحكم عليه بما حكم فجاءت أحكامه بعيدة عن الصواب بعد الفكرة التي صدرت عنها حكم الدكتور على التوحيدي بأنه متحامل على معاصريه وضرب لذلك أمثالاً لا تؤيد حكمه ، وانما تؤيد ظلمه العنيف له وقسوته عليه . ومن ذلك ما كتبه في ترجمة أبي عبد الله المرزباني (٣/ ١٢) : « كان معروفاً بسعة المعرفة وكثرة السماع ، وكان معاصروه يرونه من محاسن الدنيا ، ومنهم من يقدمه على الجاحظ . ولعل ذلك هو السبب في تحامل بعض المغرضين عليه كأبي حيان التوحيدي الذي كان يقارنه بابن شاذان وابن الخلال ممن كان لهم جمع ورواية وليس لهم فيما جمعوه نقط ولا إعجام ، ولا إسراج ولا إلجام » ومن المدهش حقاً ان الدكتور ينقم على التوحيدي هذا الرأي ويتهمه من أجله بالتحامل ، ثم لا يلبث الا قليلاً حتى يعرضه علينا على انه رأيه الذي ارتآه بعد طول البحث وكثرة المراجعة كتب في (ص ١٢٣) في نقد بعض كتب المرزباني يقول : « وبعد المراجعة المتعددة لم نظفر بما يميزه عن غيره من مصنفي الروايات والأخبار » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وليس بين الرأيين من فرق إلا ان الثاني نفس الأول وقائله الدكتور فهو وليد الانصاف وحسن النية . وصاحب الأول ابو حيان فهو إذاً دليل التحامل وسوء الطوية . ومن ذلك ما كتبه الدكتور في ترجمة ابن مسكويه (٣/١٤٦) : « قد أولع التوحيدي بمهاجمة ابن مسكويه . ورماه بمدح الجود باللسان ، وايثار الشح بالفعل ، وادعاء الحكمة ، والتكلف في الأخلاق . ولننظر كيف يقول : قال لي مسكويه مرة : أما ترى الى خطأ صاحبنا ابن العميد في اعطائه فلاناً ألف دينار ضربة واحدة ! لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق . فقلت بعد ما أطال الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ ، اني أسألك عن شيء واحد فاصدق فانه لا مدب للكذب بيني وبينك : لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه أكنت تخيله في نفسك مخطئاً ومبذراً ومفسداً أو جاهلاً بحق المال ؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل ، وليته أربى عليه ! فان كان الذي تسمع على حقيقته فاعلم ان الذي يرد ورد مقالك إنما هو الحسد أو شيء آخر من جنسه ، وأنت تدعي الحكمة وتتكلف في الأخلاق ، وتزيف الزائف وتختار المختار ، فافطن لأمرك ، واطلع على سرك وشرك » طار الدكتور فرحاً بهذا الحديث ونقله مرتين (في ص ١٣٧ وفي ص ١٤٧) وعقب عليه في الأولى بقوله : « ولو انه حاسب نفسه بمثل ما حاسب به ابن مسكويه لرأى ثورته على أهل زمانه تأخذ وقودها من قلب حاسد حقود » وعقب في الثانية بقوله : « ونحن نعرف سر هذا التحامل من جانب التوحيدي ، فقد كان شديد الحقد على المجدودين من أهل زمانه وخاصة من اتصلوا بالملوك والرؤساء . ولنا أن نضيف الى ذلك نجاح ابن مسكويه في حياته العملية فقد كان الرجل فيما يظهر متين الأخلاق ، ومتانة الخلق قوة مرعبة يرعد لها الأدباء المساكين الذين ابتلوا بالطمع في هدايا الملوك والوزراء وألفوا التزلف والتودد الى أقطاب المال والجاه . والأديب الذي يعتمد على نفسه وعلى خلقه وعلى كفايته الذاتية يعيش

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في الأغلب غريباً بين معاصريه من الأدباء ، فليس عجيباً أن يتحامل أديب متشرد أفاق كالتوحيدي على أديب موفق مطمئن يعيش كابن مسكويه . ولو شئنا لأضفنا نزعة ابن مسكويه الفلسفية فهي كذلك من أسباب حقد التوحيدي عليه فقد كان التوحيدي واسع الثقافة إلى حد مدهش ، وكان يطمع في التفرد بالسمعة العلمية والأدبية والفلسفية بين رجال ذلك العهد » . ليس فيما قاله أبو حيان لابن مسكويه وهو يحاوره في جائزة ابن العميد تحامل دفعه اليه الحسد والحقد كما يقول الدكتور ، وانما فيه الصدق والانصاف اللذان يحمد عليهما أجل الحمد . أما الصدق فلأنه صارح ابن مسكويه برأيه ، وأبان له خطأه في لوم ابن العميد على إجزال عطيته لمن رآه أهلاً لها وأما الانصاف ففي دفاعه عن تصرف ابن العميد مع ما بينهما من ألوان العداء وصنوف الشحناء وان كان هناك حسد وحقد فيجب ان يوصف بهما ابن مسكويه الذي حسد صاحب الجائزة على جائزته ، وثارت ثائرته على صاحبه ابن العميد وناله منه على ما بينهما من صفاء وولاء . ومع هذا يصفه الدكتور بأنه متين الاخلاق ! ويصف التوحيدي بالحسد والحقد والتحامل ! وهذا تحامل عنيف واسراف في اختلاق المحاسن والمساوئ وتوزيعها وفق ما تشتهيه النفس المغرضة ، ويمليه الهوى الجموح . وقد دفعه تحامله لى ان يصف التوحيدي بأنه أديب متشرد أفاق ألف التزلف والتودد الى أقطاب المال والجاه قد تحامل على ابن مسكويه لأنه أديب مطمئن العيش قد اعتمد على نفسه وعلى خلقه وعلى كفايته الذاتية ولم يطمع في هدايا الملوك والوزراء . وليس ذلك من الحق في شيء فقد تزلف ابن مسكويه وتودد الى أقطاب المال والجاه ، وعاش ما عاش على مال الأمراء والوزراء الذين صحبهم وعمل لهم : خدم الوزير المهلبي ولما توفي سافر الى ابن العميد وظل في خدمته حتى قضى نحبه فاتصل من بعده بابنه أبي الفتح ابن العميد ، ولما دالت دولته سارع الى عضد الدولة بن بويه . وهكذا كانت حياته سلسلة متصلة الحلقات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في خدمة الأمراء والوزراء . فلا يفضل أبا حيان من تلك الناحية ولكن الهوى الغلاب يسبغ على من يشاء ما شاء من الصفات والميزات وان لم تثبت للنقد إلا بمقدار ما يلقفها . ولعل أعظم دليل على إغراق الدكتور في التحامل على ابي حيان وإسرافه في ظلمه ما عقب به على رأي ابن خلكان الذي نقله عنه (٢/١٩٦) روى ابن خلكان ان ابن نباتة السعدي مدح ابن العميد بقصيدة مطلعها :

يرح اشتياق وادكار ولهيب أنفاس حرار

ولما تأخرت صلته عنه شفعها بأخرى ، وأتبعها برقعة فلم يزده على الاهمال فضاق بذلك ذرعاً ودخل عليه فأغلظ له القول حتى قال له : إن الغني إذا مطل لئيم فغضب ابن العميد وقال : ما استقدمتك بكتاب ، ولا استدعيتك برسول ، ولا سألتك مدحي ، ولا كلفتك تقريظي . فقال : صدقت أيها الرئيس ، ولكن جلست في صدر ديوانك بأبهتك وقلت : لا يخاطبني أحد الا بالرياسة ، ولا ينازعني خلق في أحكام السياسة ... فكأنك دعوتني بلسان الحال ولم تدعني بلسان المقال . فثار ابن العميد مغضباً ، ولما سكت عنه الغضب التمسه ليعتذر اليه فكأنما غاص في سمع الأرض وبصرها . قال ابن خلكان بعد ذلك : « ثم إني وجدت هذه القصيدة وصورة هذا المجلس منسوبين الى غير ابن نباته ، وكشفت في ديوانه فلم أر هذه القصيدة فيه ، ثم وجدت في كتاب مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي هذه القصيدة لأبي محمد عبد الرزاق بن الحسن المعروف بابن السياب اللغوي المنطقي الشاعر ، وهذه المخاطبة لشاعر من أهل الكرخ يعرف بموته والله أعلم » وعقب الدكتور على هذا بقوله : « ونحن نأسف على أن لم نتمكن من الاطلاع على مثالب الوزيرين ولو أتيح لنا الاطلاع عليه لاستطعنا تخطئة ابن خلكان فاننا نجزم جزماً قاطعاً أن هذا المجلس من صنع التوحيدي ، ولا يضيرنا أن النسبة لم تصح بطريقة علمية فانا نعرف التوحيدي معرفة قوية لطول ما صاحبناه وعاشرناه . ولو ألقيت جملة من كلامه في أكداس من الورق لميزناها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لأول نظرة ، فليكن الشاعر من يكون ، وليكن المخاطب من يكون فان واضع المجلس هو التوحيدي على كل حال . ولا يبقى الا أن نرجح أنه أداره على ابن العميد لا على غيره لان هذه الحفيظة ما كانت لتثور في هذه القوة على رئيس غير ابن العميد الذي شغل بثلبه وتجريحه حيناً من الزمان » ولست أدري ما الذي يستفيده الدكتور من الاطلاع على هذا الكتاب في تخطئة ابن خلكان ولا في ماذا يخطئه ؟ أيكذبه في أنه رأى القصيدة فيه منسوبة لابن السياب اللغوي والمخاطبة للشاعر الكرخي ؟ لا سبيل الى تكذيبه في ذلك فقي ماذا يخطئه إذن ؟ لست أدري وأعتقد ان الدكتور نفسه لا يدري ! ثم يجزم الدكتور جزماً قاطعاً بأن المجلس من صنع التوحيدي مع اعترافه الصريح بأن نسبته إليه لم تصح بطريقة علمية ! وهذا دليل وهاج على ان الدكتور لا يقيم للعلم وزناً ولا يسلك سبيله إلا إذا وافق ما يزينه شيطان الاعجاب ، أما إذا خالف عن أمره ، ولم يؤيد منطق الهوى فانه يتنكبه فخوراً ، ويتبع الظن الذي يغني — عنده — عن العلم والحق كل الغناء . ولا تثريب عليه من متابعة هذا الظن الذي يناهضه العلم ولا يقره بحال من الأحوال فانه — بزعمه — يعرف التوحيدي معرفة قوية لطول ما صاحبه وعاشره ، ومن أدرى بالصاحب من صاحبه ، وأعرف بالعشير من معاشره . ولو كان لهذا الادعاء العريض نصيب من الصدق لما أسرف في ثلب أبي حيان ووقف منه موقف العدو الذي لا يرقب في عدوه إلا ولاذمه ، ولو راجع عقله ، وفاتش ضميره ، ونهى النفس عن الهوى لقضى في أمره بالحق والعدل كما يصنع العلماء المنصفون .

(القاهرة) السيد أحمد صقر

المدرس بمدرسة الليسيه الفرنسية
بمصر الجديدة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net